بسم الله الرحمن الرحيم

أسامة

مسيرةُ عزٍّ وخاتمةُ شرفٍ

للشيخ/ أبي يحيى الليبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

قال الله عز وجل : {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٤ - ١٥٧].

نرفعُ إلى أمتنا الإسلامية الغالية تعازيَنا وتهانينا في استشهادِ بطل الإسلامِ وشيخ الجهادِ وقائد جموعِه الفارس المقدام والسيد الهُمامِ مِسعَرِ الحروب ورفيق الخُطوبِ سليلِ الشرف عدوِّ الترَف أبي عبد الله أسامة بن لادنِ، أعلى الله منزلته، وأجزل مثوبته، وأكرم مثواه، ورضيَ عنه وأرضاه، وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ولن نقولَ إلا ما يُرضي ربنا فإنا لله وإنا إليه راجعون،

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

كما نثنِّي بتقديم التعزية إلى أفراد أسرة ابن لادن جميعاً، ونقول لهم هنيئاً لكم شرفُ انتساب هذا الليثِ إليكم وانتسابكم إليه، فقد كان بحقٍّ أمةً في رجلٍ ورجلاً في أمةٍ، حباه الله بخلقٍ رفيعٍ، وأدبٍ جمٍّ، ورأيٍ وحكمةٍ، وشجاعة وسخاء، ورفقٍ وحياء، وتواضعٍ وعزةٍ، ولينٍ وصرامةٍ، شفوقاً على أمته سيفاً صارماً على أعداء دينهِ وعقيدته، قد أخذ من سيرة أسلافه بنصيبٍ وافرٍ:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩]

فعلى مثلِه فلتبكِ البواكي:

كَـذا فَلْيَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ ... فَلَيسَ لِعَينٍ لَم يَفِض ماؤُها عُذرُ
تُوُفِّيَتِ الآمالُ بَعدَ (أُسامةٍ) ... وَأَصبَحَ في شُغلٍ عَنِ السَفَرِ السَفرُ
وَما كانَ إِلّا مالَ مَن قَلَّ مالُهُ ... وَذُخراً لِمَن أَمسى وَلَيسَ لَهُ ذُخرُ
فَتىً كُلَّما فاضَت عُيونُ قَبيلَةٍ ... دَماً ضَحِكَت عَنهُ الأَحاديثُ وَالذِكرُ
فَتىً ماتَ بَينَ الضَربِ وَالطَعنِ ميتَةً ... تَقومُ مَقامَ النَصرِ إِذ فاتَهُ النَصرُ
وَما ماتَ حَتّى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ ... مِنَ الضَربِ وَاِعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُمرُ
وَقَد كانَ فَوتُ المَوتِ سَهلاً فَرَدَّهُ ... إِلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعرُ

وَنَفْــــسٌ تَعَـــافُ العَـــارَ حَـــتّى كَأَنَّـــهُ هُـوَ الكُفـرُ يَـومَ الـرَوعِ أَو دونَـهُ الكُفـرُ
فَأَثبَـــتَ في مُســـتَنقَعِ المَـــوتِ رِجلَـــهُ وَقـالَ لَهـا مِـن تَحـتِ أَخمُصِـكِ الحَشـرُ

جاء أسامةُ وأمةُ الإسلام تغطُّ في سباتٍ عميقٍ، وتتقلب في وادٍ من الخنوعِ سحيق، ترهّلت قواها، واسترخت مفاصلها، قد تمكّن اليأس من قلوب أكثر أبنائها، وظنَّ أعداؤها أنهم قادرون عليها بعد أن كادوا لها الليل والنهار ومكروا مكرهم الكبّار لإخراج جيلٍ منسلخٍ عن دينه بعيدٍ كلَّ البعدِ عن شرائعه، متنكّرٍ لعقيدته، نابذٍ لتاريخه، منابذٍ لأصولِه، مفتونٍ بما يبثونه إليه وينشرونه بينه من رجس أفكارهم ودَنسِ عاداتهم ورديِّ أخلاقهم، يأتسي بهم —وهم أضل من الأنعام– حذو القذة بالقذة، يرى أقبح قبائحهم تقدماً وحضارةً وازدهاراً، وقد فتحوا على الأمة أبوابا من الشرورِ المدمِّرة كالسيل المنحدر لا يقف في وجهه شيءٌ، فما أبقوا لها دنيا ولا أبقوا لها ديناً يدعّمهم في ذلك عملاء أذلاء، بلغوا أقصى دركات حضيض العبوديةِ والاستخذاء والانحطاط أمام كلِّ منحطٍّ، قد أسلموا القياد لأعداء الأمة وأرخوا لهم الحبلَ على الغارب يفعلون ما يشاؤون، وما يشاؤون إلا كلَّ خبيثةٍ وخبيثٍ وفسادٍ وانحراف، فوالَوهم قلباً وقولاً وفعلاً فلا تراهـم إلا في عُـدوتهم ولا يرضـون إلا بِشقِّهم: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [المائدة: ٨١]، يستبشرون بكل واردٍ رديٍّ، ويتغيّظون بذكر أي شيءٍ من الحقِّ جلي {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: ٤٥] فكانوا جسرهم لتحقيق مآربهم وتحصيل أطماعهم، فساموا أمة الإسلام خسفاً، وضربوا بها في الضلالة عسفاً، يدمرون عقائدها، ويفسدون أخلاقها، وينهبون ثرواتها، ويقتّلون خيرةَ أبنائها، يُذلون أعزتها، ويُعزون أذلتها، يرفعون أعداءها تشريفاً وتكريماً، ويضعون أولياءها امتهاناً وتحقيراً، ويسقونها الذلةَ كأساً إثر كأسٍ، ولم يرضوا لأمة الإسلامِ في كلِّ موطنٍ إلا أن تكونَ في الذيل، يجرُّها أعداؤها بخِطامِ الهوانِ حيثما شاءوا، ويتنقّلون بها بين أودية الأهواءِ وشُعَبِ الشهواتِ ودهاليز الأفكارِ المنحرفة، يصدونها عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ليميلوا بها عن الصراط ميلاً عظمياً.

فكان خروج هذا الأسد في هذه الحقبة المظلمة رحمةً من الله تعالى بهذه الأمةِ المبتلاة، ليصرخ فيها بكلماته الهادئة الهادرة تحريضاً لها على الجهاد، وبعثاً للهمم على الجلاد، وإعادةً للثقة بنفسها، وتحقيراً لأعدائها الذين أذاقوها ويُذيقونها سوء العذاب، وتذكيرا بسالف أمجادها وغابر عزها، وليفجّر من داخلها طاقاتٍ كامنةً أراد أعداؤها أن يميتوها أو يدفنوها، فشمّر لذلك عن ساعِد الجد وقام للأمر بنفسه ومالِه، فقرن بين القول والعمل، وكابد السهر ووعثاء السفر، وجعل عمره وقفاً على إحياء هذه الفريضةِ المهجورةِ فريضةِ الجهادِ، التي رأى أنها المخرج مما تتقلب

فيه أمته المكلومة وأيم الله إنها لكذلك!، وقد قال الله تعالى: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٩]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب)، وأيُّ عذابٍ عمَّ الأمةَ أكثر من تسلط الأراذل يذيقونها أنواع النكال في الأنفس والأعراض والأموال؟! فهجر النعيم، وطلَّق الدنيا، وفارق رغد العيش، وتركَ حياةَ القصورِ والترف، وتحمَّل التقشُّف والشَّظف، ورضي لنفسه بالكفافِ والغربةِ، وصبر لصنوف الأذى في نفسه وماله وأهلِه وأبنائه، وكذلك هم أصحاب العزائم الصارمة، والهمم العالية حينما يقومون لمبادئهم ليُقيموها، يستسهلون في سبيلها كل صعبٍ، ويتجاوزون كل عقبةٍ، بل يستعذبون كلَّ مصابٍ وهم مستيقنون أن السبيل الذي يسلكونه هو الموصل للغاية المحقق للهدفِ فعلى ذلك يحيون وعلى ذلك يموتون، وما أسامة إلا واحد من هؤلاء، وما أجمل ما قاله السيد أبو الحسن الندوي رحمه الله: (لقد تتبعت أيها السادة! التاريخ، واستعرضت المواقف الحاسمة، والساعات العصيبة في تاريخ الأمة، وفي التاريخ العام، فرأيت على رأس كل قضية منها، وفي كل أزمة ومحنة تتهدد كيان هذه الأمة، وتتحدى شرفها وكرامتها رجلاً من العصاميين يستولي على قلبه الحزن والاهتمام بهذه الحالة، فيذهل عن نفسه، وأهله، ويهجر راحته ولذته، وتتلخص الحياة عنده في حل هذه الأزمة، وفض هذه المشكلة، فلا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال حتى تنجلي هذه الغمرة، ويرى نفسه مكلفا بذلك، فقد خلق له، وأمر به، ولا يرى لنفسه عذرا في الاعتزال والانصراف إلى النفس والعيال)اهـ. أوَ ما ترون أن أسامةَ -رحمه الله- هو واحدٌ من هؤلاء الذين ذهلوا عن أنفسهم وأهليهم وهجروا راحتهم ولذاتهم وجعل نصب عينيه إنقاذ أمته من الضنكِ وإخراجها من هوان الصفعات التي تتلقاها على أيدي من لعنهم الله وغضب عليهم من اليهود النصارى ثم لا يراد لها بعد ذلك كله أن تحسنَ شيئاً سوى التوسل والتسوّل وتخوض غمار (سلام الشجعان).

أُســـامَةُ قَــد سَمَــوتَ عَلَــى البَرايـــا بِمـــا أوتيـــتَ فـــيهِم مِـــن مَزايـــا
وَأَجـــدَرُ أَن تَقـــولَ فَـــلا تُمـــارى أَنـــا اِبـــنُ جَـــلا وَطَـــلاعُ الثَنايـــا
لَـــكَ الطَعنـــاتُ في الأَعـــداءِ شَـــزراً مُســـابِقَةً إِلى القَـــومِ المنِايـــا
وَضَـــرباتٌ تَشـــيبُ لَهـــا النَواصـــي عَظيمـــاتٌ عَظيمـــاتُ الرَزايـــا
وَوَقفـــاتٌ تَفِـــرُّ الأُســـدُ مِنهـــا كَمـــا فَـــرَّت مِـــنَ الأُســـدِ الرَذايـــا
وَبَيـــتٌ لا يُســـامى في المعـــالي لَـــك المربـــاعُ مِنهـــا وَالصَـــفايا
وَفَضـــلٌ شـــاعَ في الـــدُنيا فَشَـــدَّت إِلَيـــهِ بَنـــوهُ أَكـــوارَ المطايـــا
وجـــودٌ تَعجَـــزُ الأَوصـــافُ عَنـــهُ وَتَخجَـــلُ مِـــن عَطايـــاهُ العَطايـــا
حَمَـــدنا اللَـــهَ أَن عِشـــنا إِلى أَن رَأَينـــا مَـــن لَـــهُ هَـــذي السَـــجايا

مضى ذاك الرجل الفريد وهو يعالج خطوب الحياة، ويدافع كروبها، ويطوي مِحنها واحدةً واحدةً، وقد عَلِم أن الجنَّة حفَّت بالمكاره، مضى وهو يردُّ هجماتٍ تضافرت فيها سهام الكفر مع إرجاف النفاق، وتآزرت وعود الترغيب مع وعيد الترهيب، فما التفت إليها، ولا أشغل نفسه بها، وما ثناه ذلك عن هدفه ولا ردَّه عن غايته، حيث جعل فكره وجهده مصوَّباً نحو منبع الشرِّ، ومصدر الإفساد، أمةِ اللقطاء مصدِّرة الشقاء، رأسِ الأفعى أمريكا التي ما دخلت أرض قوم إلا أفسدتها وجعلت أعزة أهلها أذلة؛ لأنها ولدت بين سِفاحٍ وسَفح، وتربَّت على الفساد والذَّبح، وترعرعت على الفحش والقبح، والفطام عن المألوف عسير ولسان حاله يردد:

هذا زمانٌ ليس يفهم أهلُه...إلا حديث النار أو لغة الدم.

وهي اللغة الوحيدة التي فهمتها أمريكا المتجبِّرة المتكبِّرة من بين سائر اللغات التي طالَ أمدُ استخدامها معها، من شجبٍ واستنكارٍ.. كلا! فإن ذلك أيضاً كان في حقِّها عزيزاً، بل هو استجداءٌ واسترضاء، وتوسلٌ واستسلامٍ، مع رعبٍ استقرَّ في أعماق القلوبِ كلما ذُكِر اسمُها، ولا ترى من طغاة أمتنا المجرمين إلا تجبراً وتكبَّرا واستئساداً على شعوبهم وذلةً وعمالةً وخضوعاً وخنوعاً أمام أسيادهم، فأبت عليه عزة إيمانه، وحمية عقيدته، وعلوُّ دينه، ونخوةُ محتِده أن يجاريَ المستبدين في ذلتهم ويواكبهم في تملقهم ولسانُ حاله يقول:

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥]

فما لنا وللاستجداء فليست أمتنا بالمستجدية، وما لنا والذّلة وقد جعلنا الله أعزةً، وما لنا والتقهقر ونحنُ أحفاد الأبطال المقدَّمين، وما لنا والتقوقع والانحسار وقد فتحت على أيدينا القرى والأمصار، تساؤلات جالت في خاطره ولاقت عزيمةً لا تحيد وإصراراً لا يميد فعزم أمرَه ثم توكَّل على ربه ومضى لما يريد:

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣].

لقد عزَّ على الشيخ أسامة –رحمه الله– أن يرى تلك الجزيرة الطاهرة (جزيرة العرب) التي غسّلت بدماء المؤمنين الزكية فأُزيح عنها الشركُ والكفر، وأَخرج عمرُ رضي الله عنه اليهود منها أذلةً صاغرين، أن يراها وقد رجعت إليها جيوش الكفر الصليبية وهي في كامل عزتها وتمام أهبتها وأبهتها وتبجحها وقد ضمَّت كل كافر وكافرة وفاجرٍ وفاجرةٍ وداعر وداعرة؛ ليعيدوا تدنيسها بصلبانهم وخمورهم وفجورهم وكنائسهم ونواقيسهم، والأقبح من ذلك أن يرفعوا لواء الدفاعِ عن مركز أمة التوحيدِ ومصدرِ إشعاع الوحي، وكأنَّ الرجالَ قد فُقِدوا في أمتنا الأبية!! فثارت ثائرتُه وأنِف أن يكون متملّقاً للعملاء الذين مكّنوا لها وفتحوا الأبواب أمامها، وأقاموا القواعد لتلقيها وتمكينها، وأبى أن يضيِّع عُمُره في طلب المخارج لأفعالهم وقد أزكم نَتنُها الأنوف وتميَّز فيها المنكرُ من المعروف، فهجَرَ تلك الأرض لأجلها وفارقها مع حبه لها، ولسان حاله:

وَفي الأَرضِ مَنـأى لِلكَـريمِ عَـنِ الأَذى	وَفيهـا لِمَـن خـافَ القِلـى مُتَعَـزَّلُ
لَعَمـرُكَ مـا في الأَرضِ ضـيقٌ عَلـى اِمـرِئٍ	سَـرى راغِبـاً أَو راهِبـاً وَهـوَ يَعقِـلُ

وقبل ذلك قوله تعالى: { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً}

[النساء: ١٠٠]، وقوله: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}[العنكبوت: ٥٦].

وأبى أن يجاورَ معسكراتهم وقواعدهم ويرى بوارجهم وطائراتهم وهو مكبّل اليدين عن مواجهتهم مُلجَم الفم عن نقدهم وتعريتهم بدعوى طاعة ولاة الأمر العملاء الذين أسلموا لأعداء الأمة البلادَ وجعلوها نهباً مستباحاً وحمىً بلا حُرمةٍ، فجدد الله به وصية النبي صلى الله عليه وسلم التي قالها وهو على فراش الموت: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) بعد أن كادت تُوأدُ في خضم التآمر والتلبيس والتدجيل والتضليل، وكشف للأمة أن هؤلاء ما جاءوا للتحرير وإنما للاحتلالِ، ولم يدخلوا للإعزاز وإنما للإذلال، وما قصدوا مصلحةَ أحدٍ إلا مصلحتهم، وأن خططهم وراء ما يتوهم الواهمون، وغاياتهم أبعد مما ينخدع به المخدوعون، وإنه لمن السذاجة

والتسطيح لقضية بهذا الحجم أن نجعلها مسألة فقهية عابرةً نُمرُّ عليها سطراً أو سطرين مما قاله العلماء الأوائل ثم نحسب أن عهدتنا قد برئت بذلك، أو ليست هي أمريكا فماذا بعد؟!!

وها هي تلك الجموع الكاثرة الكافرة يمر عليها أكثر من عقدين من الزمان، وهي جاثمة على جزيرة الإيمانِ بعد أن اتخذتها قاعدةً تنطلق منها لدكِّ ديار المسلمين القريب منها والبعيد، وتحصُد من خلالها أرواح الآلاف من رجالهم ونسائهم وأطفالهم.

فما ذهب أسامةُ حتى ترك لهؤلاء وعملائهم أبطالاً صابرين من ذوي البسالة والبأس، رفعوا لواء الدفاع عن جزيرة العرب، وأخذوا على عاتقهم إمضاء وصية نبيهم صلى الله عليه وسلم أو يفنوا دونَ ذلك، لا يردهم عن هدفهم تلبيس الملبسين، ولا تطاولُ العملاء الفاسدين، ولا تخاذل المنخزلين ولا المنخذلين، فها هي طلائعهم المباركة تبزغ شمسها من جديدٍ من يمن الإيمان والحكمة تقذف على أعداء الدين حِمماً، وتحرمهم الأمان الذي حرموا منه الأمة وطاردوهم ولو كانوا في قعر قصورهم التي اتخذوها ملاذاً للكيد وملجأً للمكر.

إن أسامةَ –رحمه الله– رجلٌ ارتفعَ لما رفعَ شأن عقيدته، وعلا لما ارتقى بإيمانه، وعزَّ لما اعتزَّ بدينه، فصار جيشاً وحدَه، كانت حياته رعباً وهلعاً لأعدائه، وسيكون موتُه خزياً ولعنةً تطاردهم، حشدت له دول الكفر قواها، واستنفرت كلَّ أجهزتها، واجتمعت لأجله بعد تفرُّقها، وأنفقت لمواجهته بلا حسابٍ من خزائنها، وما هو إلا فردٌ واحدٌ، فلمَّا قُتلَ قالوا انتصرنا: فيا للمهزلة!

وَالناسُ أَلفٌ مِنهُمُ كَواحِد وَواحِدٌ كَالأَلفِ إِن أَمرٌ عَنا

أوليست هي أمريكا التي صمَّت آذاننا بالتفاخر والتعالي بأنها أمبراطورية العصر، وأن يدها تطالُ من تشاء أينما تشاء متى تشاء!، وأن تقنياتها تكاد تعلم السرَّ وأخفى، فما لها ولهذا الفرح والمرح بمقتلِ شخصٍ واحدٍ قد تجاوز الخمسين من عُمره؟ بعد ملاحقةٍ قاربت العقد من الزمان؟ وضنَّت عليه حتى بقبرٍ يؤويه خشية أن يكونَ مناراً مُلهِماً لمن بعدَه كما زعموا، وهل هذا إلا شهادة من نفسها على نفسها بأنها أضعفُ أمةٍ وأذلُّها وأهونُها وأحقرها، وأنها عاجزةٌ عن مواجهة الرجال في حياتهم وعن إماتة أفكارهم بعد موتهم؟ دولةٌ قد نشرت قواعدها العسكرية من أقصى الأرض إلى أقصاها، وتغلغلت استخباراتُها في أجسام الدول إلى الصميم، فأذلت الملوك في قصورهم، وأرعبت الطغاةَ على عروشهم، وبيدها المال والإعلام والعملاء فإذا بها تحتفل بمقتلِ رجلٍ واحدٍ احتفالَ المنتصر على جيشٍ جرارٍ عرمرم بعد معركةٍ طاحنةٍ ماحقة.

إن أسامةَ رحمه الله لم يُخلق ليخلد في هذه الدنيا (فكل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)،

ولكن هل أدركت أمريكا بإعلامها المزور أن الكذب والتدجيل والتمويه كل ذلك لا وزن له ولا قيمة أمام نصاعة الصدق وقوّته، وأن أكوامه المنتفشة المتراكمة تطيشُ في لحظةٍ واحدةٍ تصبح فيها هباءً منثوراً حينما تواجه الحقائق التي لا يمكن محوها ولا تحريفها، فقد بذلت أمريكا جهودا مضنية بكتائب من العملاء والإعلاميين وتسليكِ فتاوى كلِّ مُضلٍّ عليم اللسان لتقنع عامة المسلمينَ أن أسامةَ رجلٌ إرهابيٌّ قاتلٌ لا يضبطه دينٌ ولا يزعه خلقٌ، وخَرَقت لذلكَ الأكاذيبَ واختلقت ضروب الزور، ونمّقت وزوّقت ولفّقت وزخرفت، وأقنعت نفسها أنها قد بلغت هذه الغاية أو كادت، والله معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول، فإذا بها يوم مقتل الشيخ تكتشف أن هذا الرجل كان متربعا على عرشٍ من المحبةِ في قلوب شعوب المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وأنه بحقٍّ كان في نظر تلك الشعوب بطلا من أبطال الإسلام ورمزاً من رموز التاريخ، وإماماً من أئمة الهدى، وعصامياً من نبلاء الزمان، فما زادت بقتله على أن وضعت خاتماً على تصديق تلك الصفات السامية، فقد بكاه الصغير والكبير ورثاه القريب والبعيد، وصلى عليه المصلون في بقاع الأرض، وخرجت المظاهرات المؤيدة له صراحةً بعد أن كان الناس يذكرونه على توجسٍ وخوفٍ، فهؤلاء هم رجالنا وقادتنا وأبطالنا يا أمة اللقطاء ويا عصابات الأشقياء فأرونا رجالكم ورموزكم الذين يموتون ولا تسمع عنهم ولا تشعر بهم حتى أمتهم التي إليها ينتمون، وسلوا أمتكم وشعبكم عن الهالك هولبروك لتكتشفوا الحقيقة.

نعم قُتِل الشيخ أسامة ليخلّد بعده معانيَ عظيمةً تبعث بالروح في هذه الأمة، وما كان ليبلّغها على وجهها مهما أوتيَ من بلاغة وبراعة ما لم يقرنها بالعمل الجادِّ، والتفاني في نصرة الحقِّ، والصبر على طول الطريقِ، ومكابدة الشدائد، وتحمل الأذى في النفس والأهل والمال، حيث عاش للجهاد وبالجهاد لحظةً بلحظةٍ، وغلب حبُّه على قلبه وتملّك فؤاده حتى لكأن ابن شدادٍ يعنيه –وهو يكتب عن صلاح الدين رحمه الله– حينما قال عنه: (ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة.)اهـ.

هاتي صلاحَ الدينِ ثانيةً فِينا وجدِّدِي حطينَ أو شبهَ حطينا

ومن هذه المعاني التي تأصلت بحياته وتأكدت بعد مقتله رحمه الله:

أولاً: أن أمة الإسلام تحتضن في طياتها طاقات عظيمة جليلة، تحتاج مَن يثيرها ويحرِّكها ويبعثها وينظِّمها، وأن معاني التضحية والبذل والفداء لم تُستأصل منها أو تقتل في قلوب أبنائها، فهي بحاجة فقط إلى (تحريضٍ صادق صافٍ حيٍّ) لتفجيرها، وعندها سترى العجائب من شبابها وشيوخها ونسائها، ودونكم العراق وأفغانستان وما تجلى فيهما من نوادر المواقف وفرائد التضحيات وعجائب البطولات، ومثلهما سائر ساحات الوغى التي تدفق عليها شباب الإسلامِ يطلبون الموت والقتل مظانَّه حتى وقف العالم مشدوهاً وهو يرى شباباً في زهرة العمر يتخلى طوعاً عن أسباب الرغد والنعيم ليُلقي بنفسه في أتونِ معاركَ طاحنةٍ فداءً لعقيدته ودفعاً عن أمته وغيرةً على شريعته غير آبهٍ بمخاطر ولا ملتفتٍ لشدائد ولا مكترثٍ بصخبِ التهويلِ، وإنما:

إِذا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْه عَزْمَهُ ... ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العَواقبِ جانِبا

ثانياً: أن دعوات الرخاوة والتماوت والمسالمة هي قتلٌ للدين وتدجينٌ لأهله فلا تصلح لمواجهة أمم الكفر التي جمعت لنفسها كل أسباب القوةِ، مع ما جبلت عليه من حب التسلط والتعالي والاعتداء، وما اعتادته من إذلال الشعوب لا سيما أهل الإسلام منهم، فالسيف يقابله السيف، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقابل الريح إلا الإعصار، وبعضُ الحلمِ عند الجهـ..ـلِ للذلة إذعانُ!، فشمَّر لهذا الأمر بإنشاء معسكرات التدريب منذ أمدٍ بعيدٍ، وأنفق عليها من حرِّ ماله ليكوِّن جيلاً مقاتلاً لا يرى طعما للحياةِ بغير سلاحٍ وكفاحٍ مع استعلاء إيمانيٍّ ملازمٍ لهم في كلِّ حالٍ، فنفث بذلك في روع الأمة معنى القوةِ والاعتزاز والثقة بالنفسِ وصرامة التحدي، وقطع بها شوطاً كبيراً –وفي وقتٍ وجيزٍ– نحو الصدارة لتتبوأ مكانها اللائق بها.

ثالثاً: أن القيادة الحقيقة التي تحتاجها الأمةُ في هذا العصر وتفتقر إليها هي التي تتقدَّم الصفوف وتتصدَّر الجموع، وتضرب الأمثلة في أنواع التضحية، وتخوض غمار المعاركِ في ساحات النزال، وتجمع بين القول والعمل، وتقول للناسِ هلموا إلى الجهاد، وتدعوهم إلى ساحاته وقد سبقتهم إليها، تماما كما كان النبي صلى الله عليه وسلم {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، حتى أنَّه عليه الصلاة والسلام بيَّن حرصه على ملازمة الخروج للقتال في كل سريةٍ فقال: (لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية)، أما أن يعيش من أراد قيادةَ الأمة عُمره كله وهو قاعدٌ خلف كلِّ جيش أو سريةٍ أو ساحةٍ، وقد جهَّز لنفسه قائمةً طويلةً من الأعذارِ والحجج يسردها سرداً عن ظهر قلبٍ كلما طُلِب منه النفير فما مثلُه من سيقود الأمةَ لا سيما في مواطن المعامع والزعازع وما أكثرها في عصرنا.

رابعاً: أن الكفر مهما امتلك من أسباب القوة وتبجح به من السلاح والتقنيات، وتعاضد وتساند وتناصر وتضافر وتكاثر لا يمكنه أن يقف أمام قوة الإيمانِ وتحدي العقيدةِ، وأن قوله تعالى:

{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩] يمكن أن يتحقق في كل عصرٍ إذا ما وُجد أهل الإيمان والصبر والعزيمة والتوكل على الله تعالى، فها قد رأى العالم بأسره صراعاً ليس فيه أدنى نسبة من التقارب بين دولٍ لم تُبقِ شيئا من أسباب القوةِ المادية إلا وحصلتها وبين طائفة قليلة مشتتة مشردةٍ قد ضاقت عليها الأرض بما رحبت ورمها القريب والبعيد بسهام العداوة والتنكّر ومع ذلكَ لا تزداد –بفضل الله تعالى – إلا قوةً ونمواً وسمواً ولا يجني عدوُها إلا خزياً وانكساراً وانحساراً، فهل يمكن لأحدٍ أن يزعم أن أمريكا اليوم في قوتها واقتصادها وهيبتها وسطوتها كما كانت عليه قبل عشر سنواتٍ؟ هذا ولم يكن ما وصلت إليه وتردت فيه قد وقع بضربة لازبٍ، ولا بطلاسم سحرية، وإنما بسنواتٍ طما بها الخطبُ حتى غاصت الرُّكبُ! وسلسلة من التضحيات الباهظة والمسير العسير والصبر المرير على أنواعٍ من أهوال الحروب والكروب والخطوب وكان أمر الله قدرا مقدورا.

خامساً: أن السبيل الحقيقي لإحياء الأمة وإعادتها إلى الجادة وجمعها على سبيل الحقّ وكلمة سواء إنما هو بالجهاد في سبيل الله، وكل الجهود التي تبذل يجب أن توجه إلى هذا المقصد، وهو أشد الطرق اختصاراً لإيقاظها، وأكثرها فاعلية في تقطيع أوصال النعرات الجاهلية والدعوات القومية التي تمزقها، فقد رأى العالم كله كيف اجتمع شباب الأمة في ساحات الجهاد وتوافدوا من كل حدب وصوب، وعاشوا جميعا تحت كنفه أحبةً متوادين متآلفين، هذا سوى الآلاف الذين كانوا تائهين في أودية الضلال وقعر الفساد قد استفاقوا ورجعوا إلى الحقِّ بعد أن رأوا صورا من التضحية والفداء والإقدام والتحدي والجرأة كانت قد مسحت من أذهانهم، ولم يخيَّل إليهم أنه قد بقي منها في أمة الإسلام باقية، فكان الجهاد سببا لهدايتهم أولاً، ثم لالتحاقهم بساحاته ثانياً، ومن رأى ساحات الجهاد وما تضمه من (الجنسيات) المتنوعة عَلم عِلمَ اليقين أن في ذلك إشارةً إلى أن طريق جمع الأمة وتوحيدها واستئصال شأفة النعرات منها إنما هو بهذا الطريق الذي يدل دلالةً واضحة على أن أمة الإسلام (أمة واحدة) يفدي بعضها بعضا بدمائه وأشلائه.

والمعاني التي تجلت من خلال مسيرة الشيخ رحمه الله وتأكدت بمقتله كثيرةٌ وإنما المقصد الإشارة.

فيا عبدة الصليب إن القوة الهائلة الصارمة التي لا يمكنكم أن تستأصلوها أو تدفنوها مهما بذلتم من جهودٍ وحشدتم من حشود هي قوة الإيمان التي ما أن ترسخ في القلوب وتستقر في النفوس حتى تصنع الأعاجيب، تلك القوة هي التي اندقَّت بمطارقها دولة قيصر، وتكسَّر تحت ضرباتها ملك كسرى، وهي التي سيزول به ملككم بإذن الله تعالى، بسواعد رجالٍ لا يرون القتل سُبةً، وما أسامةُ إلا رجلٌ من الأمةِ قد خلت من قبله رجالٌ قالوا ففعلوا، وأقسموا فبرّوا، وإنا على دربه سائرون بإذن الله:

سر يا أُسامةُ ما لجيشكَ هَازِمُ   أنت الأميرُ وإن تعتَّب وَاهِمُ
أنا من جُنودِكَ لو ملكت رأيتني   تحت اللّواءِ فهالكٌ أو سالمُ
سِرْ يا أُسامةُ فالقواضِبُ لم تَمُتْ   هِيَ ما ترى وَهْوَ الجهادُ الدّائِمُ
يا لاثِمَ القمرِ المنيرِ مُودّعاً   هل كان قبلكَ للكواكبِ لاثمُ
زَلْزِلْ جُنودَ الرُّومِ وَاهْدِمْ مُلكَهُمْ   في عزّهِ العالي فنِعمَ الهادِمُ
ولقد هَزمتَ جُموعَهم فتفرَّقوا   وشَفاكَ منهم جَيْشُكَ المتلاحِمُ
وأجَلْتَ خيلكَ في عِراصِ دِيارِهم   وفعلتَ فِعلكَ والأُنوفُ رَواغِمُ
قتلٌ وأسرٌ هَدَّ من عَزَماتِهم   وأذلَّهم وكذاكَ يُجزَى الظّالِمُ

هم أولاء رجالناٌ، وهؤلاء عظماؤنا، فأرونا رجالَكم وعظماءكم، رجلٌ في أمةٍ وأمةٌ في رجل صنعتهم تربية القرآن وزكى نفوسهم نور الإيمان، وذابت قلوبهم شوقا إلى الرحمن، فمضوا بعد أن أمضوا بدمائهم الزكية شهادةَ صدقٍ على يقينهم باستقامة سبيلهم ونقاءِ نهجهم، وقد أبقوا لجنودِ إبليس أجمعينَ ما يسوؤهم ويسوِّد وجوههم:

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[محمد: ١١] وسيأتي اليوم الذي يقال فيه لأوباما بُؤْ بشسع نعل أسامة وما ذلك على الله بعزيز!

[مجلة طلائع خراسان – العدد: ١٩]